# قصة حب غريبة . . غريبة جدا
# جايكوفسكي .. ونـاديجـدا فون ميـك ( ١ - ٢ )

**❖-تبادلا ١٢٠٤ رسائل خلال ١٤ عاما؛ ولم يلتقيا سوى مرة واحدة؛ وبشكل خاطف! ❖ - عرضت عليه التفرغ للإبداع، ومنحته مرتبا شهريا جيدا، ومسكنا آمنا، لكن بشرط عدم التقرب منها، وعدم الأعلان عن علاقتهما ابدا!**

بـرهـان شـاوي

*( ١ )*

***تعرفت في بداية التسعينيات على أستاذ للموسيقى، كان يعمل مخرجا تلفزيونيا أيضا، وكان متخصصا بنقل الحفلات الموسيقية لإحدى قنوات التلفزيون الألماني في مدينة هامبورغ بألمانيا الاتحادية. وبعد لقاءات متعددة نمت بيننا صداقة طيبة اكتشفنا خلالها حبنا المشترك لبيتهوفن وموتسارت وجايكوفسكي. وكم حاولت؛ حينها؛ مخلصا، دفعه لحب الموسيقى الشرقية، الهندية والبنغالية، باعتبارهما، في رأيي، قد وصلتا الى مشارف روحانية سامية جدا، لم تصلها موسيقى شعوبنا في الشرق الاوسط، لكنني لم أفلح..! فقد كان، وهذه حال جل المثقفين الأوروبيين، متحاملا بشكل خفي، ضد الشرق والحضارات الشرقية، دونما معرفة، بل وبإصرار على عدم التعرف!!***

وذات مرة، عبرت لهذا الصديق عن رغبتي في اخراج فيلم عن حياة جايكوفسكي، ولاسيما ان العديد من الوثائق السرية عن حياته نشرت بعد الانهيار (السريالي) للاتحاد السوفيتي، وكنت حينها خريجا جديدا من معهد السينما بموسكو، فتحمس للفكرة، واتفقنا على أن أسافر الى روسيا لجمع ما يمكنني من معلومات ووثائق وزيارة الأماكن التي عاش فيها جايكوفسكي، من أجل أن تساعدني أثناء كتابة السيناريو. وكانت مهمته أن يجد ممولا للمشروع ، وكان هذا الأمر يسيرا بالنسبة له، لأنه أراد شخصيا أن يساهم في الإنتاج.

وسافرت الى روسيا، وجمعت ما استطعت من معلومات، وكنت قد جمعت كما جيدا من الكتب الألمانية التي تتحدث عنه أيضا. لكنني لم أستطع، مع الأسف الشديد، أن أنجز هذا المشروع، لأنني، وبعد عودتي اختلفت مع هذا الصديق اختلافا شديدا بسبب فهمنا المتباين للطريقة التي يجب تقديم حياة جايكوفسكي من خلالها..، فقد كان يصر هو على تقديم حياة الموسيقار الرائع من خلال تفاصيل أخلاقية، سلوكية، متعلقة بشذوذه الجنسي، بينما كنت مصرا على تقديم هذه الحياة من خلال قصة حب نادرة في التاريخ، قصة حب غامضة جدا، وغريبة جدا، قصة حب عاشها جايكوفسكي مع امرأة غريبة الأطوار، ونادرة، أسمها ( ناديجدا فون ميك ).

فبرغم انهما كانا يعيشان في المدينة نفسها، موسكو، إلا أنهما بقيا يكتبان الرسائل لبعضهما لمدة أربعة عشر عاما، حيث كتبا خلالها (١٢٠٤) ألفا ومائتين وأربع رسائل..والأغرب من ذلك أنهما لم يلتقيا سوى مرة واحدة، حينما حضرت هي أحدى الحفلات الموسيقية، وإثناء الاستراحة مرت سيدة أرستقراطية، من على مبعدة منه، فقيل له ان تلك السيدة هي ( ناديجدا فون ميك)..، فالتفت إليها لكنه لم يستطع ان يرى حتى ملامحها جيدا، لأنها كانت قد ابتعدت!

**( ٢ )**

**طفولة الشمعة الحزينة**

ولد بيوتر إيليش جايكوفسكي في ٧ مارس - آذار من عام ١٨٤٠ في مدينة( فوتكنسك ) بالأورال، لعائلة ميسورة الحال، حيث كان أبوه مديرا لأحد المناجم، وحيث كانت أمه تنحدر من أصل فرنسي، وقد كان ( بيوتر) الابن الثاني لاربعة أخوة وأخت واحدة. وبرغم ان أخته (الكسندرا) كانت الأصغر من بين جميع الأخوة، الا انها كانت الاقرب اليه. وكعادة بعض العوائل البرجوازية في روسيا القيصرية، فقد استدعت العائلة مربية فرنسية لرعاية الأولاد وإعطائهم بعض الدروس في الموسيقى. وقد ذكرت هذه المربية بانها دخلت على الصبي (بيوتر)، الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة، في غرفته، فرأته محمر العينين فسألته عما به، فأجابها مشيرا الى رأسه: الموسيقى..، الموسيقى..هنا في رأسي..إنها تقتلني..!

وقد اضطرت العائلة لأبعاده عن دروس الموسيقى لبعض الوقت من أجل أن تهدأ أعصابه!

لكنهم دهشوا حينما لاحظوا انه يحقق تطورا سريعا في تعلم الموسيقى. وكانت هذه المربية تروي له القصص والمغامرات الشيقة، ومنها قصة (جان دارك - عذراء أورليان)، فبقيت هذه القصة في أعماقه حتى إستطاع بعد ثلاثين عاما ان يؤلف أوبرا باسم ( عذراء أورليان)!

**( ٣ )**

**رحيلُ الأم الغالية**

حينما بلغ الصبي ( بيوتر ) العاشرة من العمر قررت العائلة ان يُرسل الى ( مدرسة الحقوق الداخلية) في العاصمة ( سانت بيوترربورغ )، فاخذته أمه الى هناك، وحين حانت ساعة الفراق، تعلق الصبي بأمه لا يريد فراقها.. وبعد سنوات إستذكر جايكوفسكي هذه الحظات قائلا :( إن ذلك اليوم كان الأشد رعبا في حياتي).

كانت سنواته في مدرسة الحقوق مليئة بالمعاناة لفراقه عن أمه التي كان متعلقا بها جدا، بحيث سبب له ذلك إشكالات سلوكية ونفسية في مسيرة حياته..، ولقد كانت صدمته الكبرى هي وفاة هذه الأم الحنون في يونيو - تموز ١٨٥٥ بمرض الكوليرا، ولم يكن عمره حينها سوى خمس عشرة سنة.

ربما لا تفي الكلمات بالغرض، ولا تستطيع تبيان عمق وكثافة الألم الذي سببته هذه الوفاة على روح هذا الفتى المرهف الاحساس والرقيق القلب والمشاعر..، وبرغم ذلك فان الوقائع التاريخية تشير الى انه كان في هذه الفترة يأخذ دروسا في العزف على البيانو عند أحد مشاهير المعلمين الألمان في الموسيقى، إلا ان الوضع الاقتصادي للعائلة قد تدهور في هذه الفترة حتى انه لم يعد باستطاعته ان يدفع اجور الساعات التعليمية في الموسيقى، فتوقف عنها، لكنه في هذه الفترة تعرف على معلم الغناء، الشهير في ذلك الوقت،( بيكولي ) الذي اليه يعود الفضل في بناء القاعدة المعرفية الموسيقية لجايكوفسكي.

**( ٤ )**

**الموسيقى .. الموسيقى**

في عام ١٨٥٩ انهى جايكوفسكي مدرسة الحقوق، واصبح موظفا في وزارة العدل، الا ان الوظيفة لم تشبع توقه البالغ الى الحياة، فأخذ يزور الصالونات الادبية والفنية المنتشرة آنذاك في العاصمة، لكن حتى تلك الأجواء لم تشف غليل هذه الروح التائهة التي ألقت بنفسها في فضاء الموسيقى. وفي هذه المرحلة بالذات عرف جايكوفسكي بان قدره مرتبط بالموسيقى.

وحينما تم افتتاح أول معهد للموسيقى في روسيا عام ١٨٦٢ كان هو من اوائل المتقدمين اليه.

وما ان انهى دراسته في المعهد حتى عرض عليه الموسيقار (روبنشتاين)، الذي كان يدير المعهد الموسيقي بموسكو، منصب أستاذ نظرية الموسيقى في المعهد، فانتقل الى موسكو للعمل في المعهد الذي يحمل الآن أسمه تكريما لعبقريته ولذكراه.

**( ٥ )**

**أحلام الشتاء.. والزواج الغريب**

في موسكو سرعان ما وجد جايكوفسكي نفسه وسط حلقة من الاصدقاء الجدد، من ادباء ومفكرين، وموسيقيين، لكن روحه كانت تتوق الى العزلة، مركزا على التأليف الموسيقي، حيث بدأت شمس مجده بالشروق، وحيث كتب أول سيمفونية له باسم ( أحلام الشتاء ). إلا ان المفاجأة التي إهتزت لها الاوساط الثقافية في موسكو كانت زواجه من إحدى طالباته في المعهد!

التفسيرات تضاربت في حل لغز هذا الزواج، فهناك من فسر الأمر بان جايكوفسكي سعى من وراء ذلك الى تغطية الشائعات التي بدأت تنتشر عن سلوكه الجنسي الشاذ، إلا أن صديقه الحميم الموسيقار (لاروخ) ترك لنا، في كتابه عن جايكوفسكي، تفاصيل غاية في الدقة والاهمية، تؤكد بان هذه الفتاة الجميلة التي كانت طالبة في معهد الموسيقى، عشقت جايكوفسكي، وتقربت منه، الا انه لم يكن يدرك مراميها، ثم أخذت تكتب له الرسائل العاطفية التي تبوح فيها بحبها له، ولم يكن هو يجيبها، واخيرا كتبت له رسالة هددت فيها بالانتحار اذا لم يتزوجها، وحينما لم يستجب لها اقدمت فعلا على الانتحار. وبما ان الشائعات كانت قد انتشرت فعلا عن سلوكه الشاذ، فما كان منه الا ان تزوج هذه الطالبة شفقة منه عليها ، وتغطية لوضعه وسمعته. كل الذكريات والمذكرات عن جايكوفسكي تؤكد بأنه كان خجولا جدا بشكل غير طبيعي، هادئا، صموتا، بل ومرتبكا، كما كان طيبا، اصيلا وشجاعا في إتخاذ الواقف اللائقة بالانسان في المواقف الحرجة. ويبدو ان هذه الفتاة كانت تعشقه حقا، إلا ان هذا الحب، ثم الزواج كانا كارثة حقيقية على كليهما، فقد عاشا سوية في بيت واحد، لكن دون اية علاقة زوجية، ومهما كانت ملابسات وضعه وسيرته الذاتية الا ان تفاصيل قصة هذا الزواج تكشف عن شخصية الفنان الطيبة، واستعداده للتضحية بالذات من اجل إسعاد الآخرين. وقد كشف عن بعض تفاصيل هذا الزواج في رسالة بعثها الى ناديجدا فون ميك، التي كانت تعيش مع نفسها صراعا آخر، برغم ان هذا الأمر قرب جايكوفسكي منها أكثر..!

**( ٦ )**

**ناديجدا.. الأمل الأخرس**

خلال سنوات تدريسه في المعهد كتب جايكوفسكي مؤلفات موسيقية مهمة جدا، من أبرزها باليه (روميو وجوليت )عن تراجيديا شكسبير الشهيرة. وبرغم ان مرتبه خلال هذه السنوات قد تضاعف، تصاعدا مع إمتداد سنوات خدمته ونمو شهرته، إلا ان متطلبات الحياة العائلية، وتبذير (زوجته) التي كانت مولعة بالمظاهر، وضعته في ضائقة مادية، فاضطر الى إعطاء الدروس الخصوصية. وقد كان اول اتصال له بصديقة عمره المتبقي، وشريكة حياته الأبداعية، حينما تسلم رسالة منها في ١٨ ديسمبر - كانون الأول عام ١٨٧٦ من السيدة ( ناديجدا فون ميك ).

وقد علق هو فيما بعد بأن ذلك اليوم كان اسعد ايام حياته.

( ناديجدا )، والتي يعني اسمها بالروسية ( الأمل )، كانت ارملة لمهندس سكك حديد، ألماني الأصل، جاء الى روسيا للعمل فيها فمد خطوط سكك الحديد هناك، وجنى من خلال ذلك ثروات طائلة، لكنه مات مخلفا احد عشر ابنا وبنتا، فتولت زوجته إدارة هذه الأملاك والثروات من بعده.

كانت (ناديجدا فون ميك) في الخامسة والأربعين من العمر حينما مات زوجها،. وحينما بدات مراسلاتها مع جايكوفسكي كانت هذه السيدة روحا هائمة في الموسيقى، إمرأة اعتزلت المجتمع الارستقراطي، مركزة اهتمامها على تربية أبنائها وادارة أملاكهم، لكنها وجدت خلاصها في الموسيقى. وقد كتبت فيما بعد لجايكوفسكي بأن مؤلفه الموسيقي ( العاصفة ) مس أعماقها وجعل الدموع تتدفق من مقلتيها. وبرغم ان جايكوفسكي كان شخصية معروفة في المجتمع الثقافي ويمكن الوصول إليه والاتصال به سهلا، إلا أن الاتصال الشخصي بينهما تم عن طريق أحد تلاميذه الذي كان يعطي الدروس لأحد ابناء السيدة الأرملة. وكان هذا المعلم الفتي يروي لها عن عزلة أستاذه ووحدته وظروفه المادية الصعبة، فهبت السيدة الأرملة لمساعدته، ولكي لا تحرجه وتحرج نفسها، وجدت شكلاً مناسبا لهذه المساعدة، وذلك بتكليفه بكتابة قطعة موسيقية لأحد أبنائها كي يتدرب عليها، وخصصت له مكافأة مجزية لم يكن يحلم بها، وكان اتصالهما يتم عن طريق الرسائل..!

**( ٧ )**

**روحان هائمتان**

هاتان الروحان الهائمتان وجدتا السعادة في هذا الشكل من التواصل الغريب بينهما. وبعد ان توثقت العلاقة، عن طريق الرسائل طبعا، عرضت عليه أن يترك وظيفته في المعهد الموسيقي، وأن يتفرغ للإبداع والتأليف الموسيقي، مقابل مرتب جزيل تصرفه له شخصيا كل شهر، ومسكن يؤمن له الراحة، لكن بشرط الا يسعى الى التقرب الشخصي منها، وان لا يعلن عن علاقتهما وتفاصيلها ابدا، بل طلبت منه ان لا يهدي لها اي عمل موسيقي بشكل علني، لكن وفاءه لها لم يمكنه من ذلك فقد اهدى الحركة الثانية من السيمفونية الرابعة ( الى صديقة عزيزة )، وكان يقصد ( ناديجدا ).

ومن أغرب الأمور ان العلاقة بينهما انفصمت بعد ان طلق هو زوجته الشابة التي لم تطق الحياة معه بهذا الأسلوب فانطلقت لتروي ظمأها الروحي والجسدي، وتعيش حياتها الخاصة بعيدا عنه، عن قناعة أو إنتقاما منه لتجاهلها في حياته، حيث انتهى بها هذا الطريق إلى مستشفى المجانين. وقد كان ذلك قبل ثلاث سنوات من موت جايكوفسكي .!

وقد ظلت أسرار هذه القطيعة المفاجئة موضع بحث من المهتمين بحياة جايكوفسكي لعقود من الزمان. فبعضهم يعزوها لخسارة السيدة ( فون ميك ) لأملاكها وثرواتها في البورصة، وهذا ما لمحت اليه، وقرأته شخصيا، في رسائلها الأخيرة إليه، وبعضهم فسر الأمر الى إنتشار الشائعات عن حياة جايكوفسكي الخاصة، مما دفعها للحفاظ على سمعتها ولاسيما ان الأبناء قد كبروا، لكن هذا الأمر غير دقيق ابدا، لأنها كتبت له في أولى رسائلها إليه، والتي سنقدم بعضا منها لاحقا، أنها تعرف كل صغيرة وكبيرة عنه، وتعرف كل ما يذمه الناس به، وما يتناقلونه عنه وما الى ذلك. لكن بعض الوثائق تؤكد بأن زوج أبنتها، الذي كان بمثابة سكرتير لها، وبعض أبنائها، أتفقوا على إعدام هذه العلاقة، وايقاف المساعدات، بل ساهموا في عدم إيصال الرسائل التي يرسلها هو إليها، وبالعكس، تمزيق الرسائل التي كتبها له، ولدينا بعض الرسائل التي كتبها هو إليها بينما نفتقد الرسائل التي كتبتها هي ولم تصل، وقد ظل هو كئيبا من هذه القطيعة المفاجئة، كما أحست هي بالخيبة من إنقطاعه عنها، ظنا منها انه كان يراسلها لأنها كانت تساعده ماديا، وحينما إنقطعت المساعدة إنقطع عن الكتابة لها..!

**( ٨ )**

**رسائل العزلة**

في إحدى رسائلها الاولى كتبت ( ناديجدا) لجايكوفسكي ما يأتي :( حينما سمعت موسيقاك، لأول مرة، أكتسحتني الرغبة العارمة في ان أتعرف إليك، فأنا لا أفصل الابداع عن شخصية المبدع، لكن بقدر قوة إعجابي بموسيقاك كان خوفي ايضا من التعرف إليك).

وفي رسالة أخرى يكتب هو لها:( ثمة مرض ما قد قربنا من بعضنا، هذا المرض هو مرض (الآنطواء والنفور من الناس)... والناس المصابون بهذا المرض لا يخافون شرور الآخرين، بقدر ما يخافون الخيبة في الآخرين، فهم في حنين الى المثال الضائع، والذي يحدث في الكثير من الأحيان بعد التقرب من الآخرين).

هذه الرسائل منحت جايكوفسكي طاقة هائلة على الأبداع، فقدم خلال هذه السنوات أعماله الخالدة، باليهات: بحيرة البجع، الحسك الهش، كسارة البندق، واوبرات: يفجيني أونيغن، عذراء أورليان، الساحرة، سيدة البستوني، وكذلك أعماله الأوركسترالية والسيمفونيات الرابعة والخامسة ومقطوعة ١٨١٢، وهاملت، والكونسيرت الثاني والثالث للبيانو، والكونسيرت الأول للكمان، وغيرها من الأعمال الخالدة. وكان قبل ذلك قد أنجز سيمفونياته الثلاث، والكونسيرت الأول للأوركسترا، والمارش الصربي( السلافي ، فيما بعد)، وباليه ( روميو وجوليت)، وكونسيرت ( فصول السنة)، وغيرها من الأعمال الموسيقية.

والغريب ان ( ناديجدا فون ميك) ماتت بعد ثلاثة أشهر تقريبا من موت جايكوفسكي، فقد مات هو في٦ نوفمبر ١٨٩٣، بينما ماتت هي في ١٣ يناير ١٨٩٤ ، بعد ثلاث سنوات من إنقطاع الرسائل بينهما، مخلفا سيمفونية ناقصة هي السيمفونية السادسة، والتي عنها وعن حياة جايكوفسكي كتب (كلاوس مان) رواية تحمل اسم ( السيمفونية الناقصة).

لقد كانت ( ناديجدا فون ميك) بالنسبة له مثالا.. حلما.. وقد اعترف هو بذلك قائلا: ( إنها مثال الانسان). ومهما كانت التفاصيل الحياتية، التي لم أتوسع فيها خلال هذا العرض، متضاربة، ومقتضبة، في رسم هذه العلاقة، إلا انها تبقى من أغرب قصص الحب، إنها درس عظيم في الحب، لكل النساء والرجال، ولكل العصور والأزمان. وربما يكون من المفيد تقديم نماذج من هذه الرسائل.

**( ٩ )**

**المشروع المؤجل**

لقد كان إختلافي مع الصديق الألماني قد ضيع فرصة كبيرة ونادرة بالنسبة لي..، لكني، وبمرور الوقت، لم آسف، ولن آسف، أبدا على ضياعها. صحيح ان هذه القصة ومخطط السيناريو سيبقيان مشروعا مؤجلا، كبقية المشاريع، إلا ان عدم إتفاقي مع تصوراته، وعدم إنسياقي لفهمه الفضائحي للموضوع، والدخول في تفاصيل حياة جايكوفسكي الخاصة، والتي من المؤكد ستضيء بعض جوانب حياته الأبداعيه، لكن ليس الأبداع ذاته، منحني راحة نفسية، فأنا مؤمن بأن مجد الانسان الحقيقي هو مجد الحب..وليس غير الحب.

# نصـــوص النـــــأي والنـــــاي

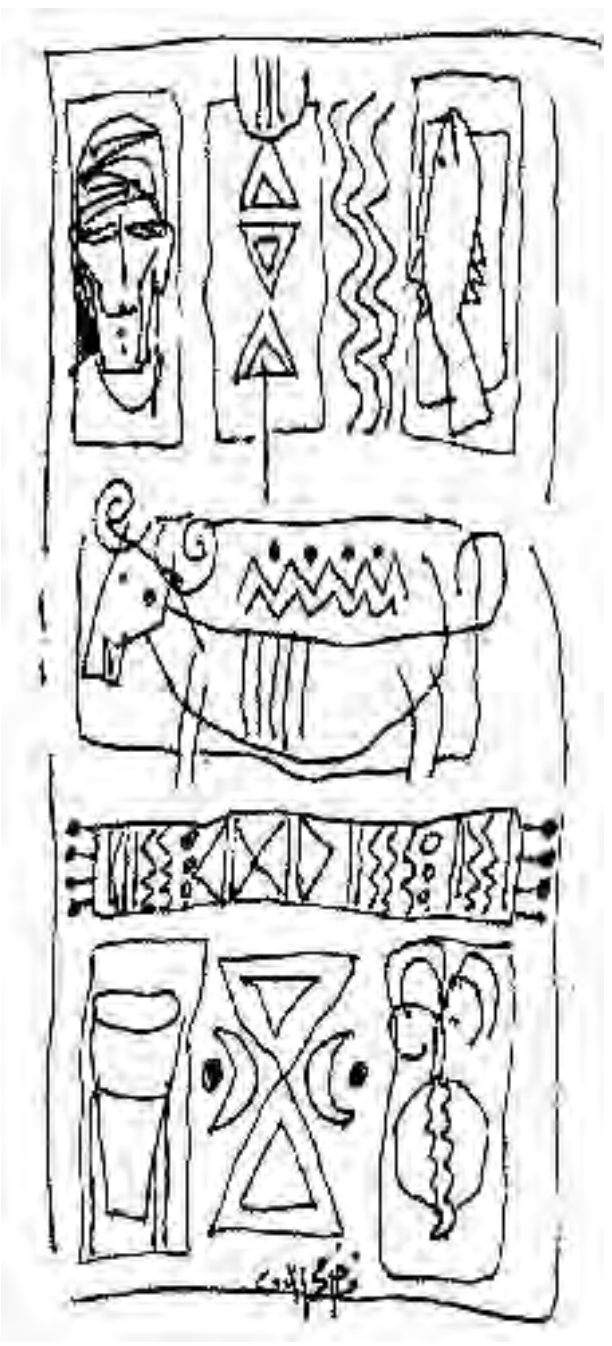

**نسيتُ نفسي على طاولةِ مكتبتي**
**ومضيت**
**وحين فتحتُ خطواتي في الطريق**
**اكتشفت أنني لا شيء غير ظلٍ لنصٍ**
**أراه يمشي أمامي بمشقة**
**ويصافح الناس كأنه أنا**

٢٠٠٠/٢/٢ مالمو

❖

**هواجس**

**أقلّ قرعة باب**
**أخفي قصائدي - مرتبكاً - في الأدراج**
**لكن كثيراً ما يكون القرع**
**صدى لدوريات الشرطة التي تدورُ في شوارعِ رأسي**
**ورغم هذا فأنا أعرفُ بالتأكيد**
**انهم سيقرعون الباب ذات يوم**
**وستمتدُ أصابعهم المدربة كالكلابِ البوليسيةِ**
**إلى جواريرِ قلبي**
**لينتزعوا أوراقي**
**و.....**
**حياتي**
**ثم يرحلون بهدوء**

١٩٩٦/١٠/١ بيروت

❖

**تأويل**

**يملونني سطوراً**
**ويبوبونني فصولاً**
**ثم يفهرسونني**
**ويطبعونني كاملاً**
**ويوزعوني على المكتباتِ**
**ويشتمونني في الجرائدِ**
**وأنا**
**لم**
**أفتحْ**
**فمي**
**بعد**

١٩٩٦/٣/٧ دمشق

❖

**شيزوفرينيا**

**في وطني**
**يجمعني الخوفُ ويقسمني:**
**رجلاً يكتبُ**
**والآخرَ خلفَ ستائرِ نافذتي،**
**يرقبني**

١٩٩٣/١/١ بغداد

❖

**أبواب**

**أطرقُ باباً**
**أفتحه**
**لا أبصرُ إلا نفسي باباً**
**أفتحهِ**
**أدخل**
**لا شيء سوى بابٍ آخر**
**يا ربي**
**كم باباً يفصلني عني**

١٩٩٨/١٢/١ مالمو

❖

**نقود الله**

**على رصيفِ شارعِ الحمراء**
**يعبرُ رجلُ الدينِ بمسبحته الطويلة**
**يعبرُ الصعلوكُ بأحلامهِ الحافيةِ**
**يعبرُ السياسي مفخّخاً برأسِ المال**
**يعبرُ المثقف ضائعاً**
**بينَ ساهٍ وحيِ السلّم**
**الكل يمرُ مسرعاً ولا يلتفتُ**
**للمتسولِ الأعمى**
**وحده المطرُ ينقطُ على راحتهِ الممدودةِ**
**باتجاهِ اللّه**

**عدنان الصائغ**

١٩٩٦ بيروت

**أوراق ١**

**أكتبُ ويدي على النافذة**
**تمسح الدموع عن وجنة السماء**
**أكتبُ وقلبي في الحقيبة يصغي لصفير القطارات**
**أكتبُ وأصابعي مشتتة على مناضدِ المقاهي**
**ورفوفِ المكتبات**
**أكتبُ وعنقي مشدودٌ منذ بدءِ التاريخِ**
**إلى حبلٍ مشنقة**
**أكتبُ وأنا أحملُ ممحاتي دائماً**
**لأقلّ طرقة باب**
**وأضحكُ على نفسي بمرارةٍ**
**حين لا أجد أحداً**
**سوى الريح**

١٩٩٢كانون الأول بغداد

❖

**أوراق ٢**

**أضعُ يدي على خريطة العالم**
**وأحلم بالشوارعِ التي سأجوبها بقدمي الحافيتين**
**والخصورِ التي سأطوقها بذراعي في الحدائقِ العامة**
**والمكتبات التي سأستعيرُ منها الكتبَ ولن أعيدها**
**والمخبرينَ الذين سأراوغهم من شارعٍ إلى شارعٍ**
**منتشياً بالمطرِ والكركراتِ**
**حتى أراهم فجأةً أمامي**
**فأرفع إصبعي عن الخريطة خائفاً**